اسم الدرس : تفسير سورة سبأ (٣) | الآيات [١٦ : ٢٣]

تصنيف الدرس : مجلس تفسيـر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بإذن الله -عز وجل- نستكمل تفسير سورة سبأ.

كنا توقفنا عند قول الله عز وجل: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبإ: ١٥].

بفضل الله عز وجل انتهينا المرة الماضية من قصة سيدنا داوود وسيدنا سليمان عليهما السلام، وتكلمنا لماذا ذكرت قصة وفاة سيدنا سليمان بهذه الطريقة في سورة سبأ تحديدًا، وتكلمنا عن المنسأة التي تُستعمل للزجر، ودابة الأرض التي تأكل المنسأة، {فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} [سبإ: ١٤].

وقلنا إن هناك فارق بين الدعوات التي تقوم على الإيمان، والدعوات التي تقوم على التربية.

ثم تحوَّل الخطاب لمشركي قريش، فقال الله تعالى لهم: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}. وقلنا هنا إن الحديث كان عن جزأين:

- الجزء الأول: يتكلم على أهل الشكر؛ سيدنا داوود وسيدنا سليمان اللذان شكرا نعمة ربنا.

- والجزء الثاني: عن الذين كفروا بنعمة ربنا -سبحانه وتعالى-.

وقلنا أيضاً نقطة مهمة تفيدنا في تفسير القرآن وهي أن مجيء القصة الواحدة يكون لها أكثر من غرض.

بمعنى أن هذه القصة يمكن أن يستفيد منها المشركون بشيء، ويستفيد منها المؤمنون بشيء، ويستفيد منها المربون والدعاة والعلماء الذين سيقومون مقام النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدعوة بشيء آخر.

فكلما ارتقى الإنسان في الإيمان؛ ازدادت استفادته من القرآن.

وذكرنا أهمية مجيء قصة سيدنا سليمان وسيدنا داوود مع قصة سبأ،

ومن الأشياء الأساسية التي ذكرت في السورة أنها بدأت بقول الله -عز وجل-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[سبأ:١] وقلنا إن هذه اللام في قوله تعالى: {له} هي لام الملك، فالله -عز وجل- مالك كل شيء، ثم هو تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}[سبأ:٢].

فقلنا إن أكثر صفتين وردتا في أول السورة هما:

- ((الملك)) أي أن الله -عز وجل- يملك كل شيء.
- و((العلم)) -وهو الصفة الثانية، أي أن الله -عز وجل- يعلم كل شيء.

هاتان الصفتان هما من أكثر الصفات التي يحتاج الإنسان أن يستحضرها في وقت الاستضعاف؛ ففي وقت الاستضعاف يرى الإنسان أن أهل الإيمان ليس معهم أي شيء، وأهل الباطل معهم كل شيء، لذلك يذكرنا ربنا أن الله -عز وجل- يملك كل شيء؛ هذا التذكير لأهل الإيمان.

إذًا وماذا عن أهل الكفر؟ هؤلاء يُذكرهم ربنا أنه هو الذي أعطاهم هذا، وربنا قادر أن يسلبهم إياه، فكما أعطاهم هذه الأموال، هو قادر على أخذها منهم في لحظة. فجاء الله بنموذج لمن كفر نعمة -الله عز وجل- عليه. وطبعًا هذا النموذج يناسب أن يُسقط على قريش؛ لأن الله هنا يُذكِّر قريشًا بنعمتين..

ذكر الله تعالى في سبأ نعمة الرزق ونعمة الأمن.

- ففي الآية {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ} وهذه نعمة الرزق.
- بعد ذلك تأتي نعمة الأمن {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ}[سبأ:١٨].

وهكذا فإن أكبر نعمتين لسبأ هما نعمة الرزق ونعمة الأمن. وهاتان هما النعمتان اللتان كانتا عند قريش {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}[قريش: ٤]، {وَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}[القصص:٥٧].

وهكذا فإن النعمتان اللتان يُذكِّر ربنا -سبحانه وتعالى- بهما قريشًا هما أيضًا نعمة الأمن ونعمة الرزق.

فربنا جاء لهم بنموذج –وهو قرية سبأ– أعطاهم الله –عز وجل– نعمتي الأمن والرزق، ثم كفروا وأعرضوا، فسلبهم الله –عز وجل– هاتين النعمتين، فكأنّ الله تعالى يقول لهم: مثلما أعطيتكم يا قريش نعمتي الرزق والأمن، أنا قادر على أن أسلبكم إياهما كما فعلت بمن قبلكم؛ أي سبأ.

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}.

بدأ الكلام عن السكن، وهذه أكثر نعمة يشعر بها الإنسان، ومصداق ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم: (من بات آمنا في سربه معافًا في بدنه يملك قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها)، فأول شيء يبحث عنه الإنسان أن يكون لديه سكن يأمن فيه.

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}، فما هي هذه الآية؟ سنجد أن هذا المقطع بدأ بكلمة ((آية)) وخُتم بكلمة ((آيات)).

بدأ {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}، وختم {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[سبإ: ١٩]

.

فما هي الآية التي في المسكن؟ بعضهم قال: إن ((آية)) تفسيرها {جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ} بعض المفسرون قال: إن البلد كلها كانت محاطة بجنتين، البعض الآخر قال: لا بل كل فرد في القرية لديه سكن، يملك جنتين؛ على يمينه جنة وعلى شماله جنة، وهذا لكل شخص منهم وليس للبلد كلها! فكانت آية أن يوفر لهم ربنا –سبحانه وتعالى– هذا السكن ويدبر لهم، ويقدر لهم هذا السكن.

يقول ربنا: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}، العلماء تكلموا كثيرًا عن سبأ، هل هو مكان أم اسم شخص؟ طبعًا قرية سبأ موجودة في اليمن، ولكن السؤال عن أصل كلمة سبأ.

يروى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه اسم رجل كان له عشرة أولاد)[1]، هؤلاء الأولاد بعشر قبائل، فبعد أن حصل الإهلاك وأغرقهم السد، تفرقوا في البلاد؛ ستة منهم ظلوا في اليمن، وأربعة

---

[1] [عن فروة بن مسيك:] أتيت النبي ﷺ، فذكر الحديث، فقال رجل من القوم: يا رسول اللهِ، أخبرنا عن سبأ ما هو أرض أم امرأة؟ فقال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة [من العرب] فتيامن ستة وتشاءم أربعة
أبو داود (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود ٣٩٨٨ • سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح] • أخرجه أبو داود (٣٩٨٨) واللفظ له، والترمذي (٣٢٢٢)

تفرقوا؛ قبيلة ذهبت إلى الشام وقبيلة إلى مكة، وقبيلة إلى اليمن، وقبيلة إلى عمان، وذكروا واستفاضوا في علم الأنساب وأطالوا في هذه المسألة.

الشاهد أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يُروى عنه أنه سئل من هو سبأ؟ فقال: (الرجل له عشرة أولاد)، والمقصود بالأولاد أي: ظهر من نسله قبائل حتى ولو لم يكونوا أولاده مباشرة، المهم أن سبأ مكان في اليمن.

إذًا ومتى حصلت هذه القصة؟ حصلت بعدما ماتت بلقيس، فبلقيس آمنت مع سيدنا سليمان وعاشت فترة وهي مسلمة، ثم ماتت وبعدما ماتت بفترة عاشوا في نعيم. ويُقال: إن الذي بنى السد الذي جاء لهم بكل هذا النعيم كان بلقيس.

ويُقال: لا؛ بل الذي بناه كان سبأ نفسه، وبلقيس من نسل سبأ، أي أن الرجل الذي اسمه سبأ هو الذي بدأ فكرة البناء، وسوف نقف عند كلمة سيل العرم وكيف تطور معهم؟ وكيف صنع لهم تقدمًا حضاريًّا؟

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ}، يُروى في الآثار: "كانت المرأة تخرج من البيت تضع المِكتل على رأسها تمشي فقط، فتقع الثمار من دون أن تحتاج هي أن تمد أيديها، فتقطف وتضعها".

وهكذا كانوا في قمة الرغد، و"العيش الرغد" أي: الهنيء الذي يأتيه الرزق بدون تعب، أي أنه لم يكن هناك حاجة أن يستيقظ الواحد منهم في الصباح الباكر ويذهب لجمع الثمار، بل وقتما شاء ينزل، ومهما كانت الشمس ساطعة، فالأشجار ملتفة حول الجنة وتمنع وصول أشعة الشمس للأرض، فكانوا في نعيم رغد هنيء.

{كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} نحن قلنا إن أي نعمة يقابلها شكر، ماديًّا كان أو معنويًّا.

لذلك جاء في الآية: {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}[آل عمران:٤٢] ، ويقابلها {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي}[آل عمران:٤٣].

ومثال آخر؛ {يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} يقابلها مباشرةً {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٤٤].

وهكذا كل نعمة يقابلها شكر.

فيقول الله لهم: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ} ولكن لا بد أن يأتي مقابلها شكر {وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: ١٥].

قيل ما معنى "وَرَبٌّ غَفُورٌ"؟ قال إن الله -عز وجل- لم يعاجلهم بالعقوبة، أي أنهم قبل بلقيس كانوا يسجدون للشمس، ولكن ربنا لم يدمر عليهم السد، بل تركهم فترة حتى جاء سيدنا سليمان وبعث لهم، ثم آمنوا واستمر الرغد من العيش، ثم بعد ذلك كفروا. وظلوا فترة كفارًا، وربنا - سبحانه وتعالى- لم يعاجلهم بالعقوبة.

فربنا يقول لهم: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} أي أن ربنا -سبحانه وتعالى- غفر لكم وصبر عليكم وأرسل إليكم وأوضح لكم، فلماذا ما زلتم مستمرين بالجحود؟!

{بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} وفي النهاية صمموا على الإعراض {فَأَعْرَضُوا}.

الإنسان أحيانًا حين يعيش فترة من النعيم يتناسى أن ربنا هو الذي أعطاه إياه، ويعتقد أنه قادر عليه، لأنه أخذ بالأسباب فظنّ أن هذا النعيم لن يذهب عنه أبدًا، واعتقد أنه أحكم وضبط كل أموره.

بالضبط مثل صاحب الجنتين في سورة الكهف؛ حين نظر لجناته {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} فماذا قال؟ {قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا} [الكهف:٣٥] لسان حاله كأنه يقول هذه لا يمكن أن تذهب، وكيف تذهب أصلًا؟! فهو أعد وضبط حالة النخيل والشجر والمياه!

فهؤلاء معتقدون أنهم ضبطوا السد وأحسنوا صنع الحفر للسد لتنزل منها المياه، وأخذوا احتياطاتهم، وجزموا أنه بالأسباب مستحيل أن تذهب هذه الجنات.

فيبدأ الإنسان بعد فترة -والعياذ بالله- يشعر أنه غير محتاج لله، ففي بادئ الأمر كانوا متوجسين خائفين، فالمياه قد تغرقهم، فقالوا: يا رب، فهُدوا إلى الفكرة.

وعندما بنوا السد كانوا خائفين من أن يقع، فقالوا: يا رب.

ثم مضت فترة والسد لم يقع، فيشعر الإنسان - والعياذ بالله- أنه غير محتاج لله، هذه هي نقطة الكفر؛ تبدأ من هنا.

لذلك ربنا -سبحانه وتعالى- في أول آيات أُنزلت قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } يقول لك ربنا إن الإنسان ضعيف {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} . والإنسان جاهل {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١-٥]

فبالرغم من أن الإنسان ضعيف، وبالرغم من أن الإنسان جاهل؛ {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ} فلم يطغى؟ كأنَّ الآيات تقول: أنت جاهل وأنت ضعيف فلم تطغى؟!

{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ}[العلق:٦-٧] بمجرد أن يشعر أنه غير محتاج لربنا، يطغى، تجد إنسانًا في كامل صحته، ومعه نقود، والوظيفة ثابتة وأصبح له مكان في الحكومة ولم يعد عمله خاصًا، واشترى السيارة التي يريدها، وبعد ذلك السيارة تعطلت؛ فاشترى سيارة أفضل وهو معتقد أنه لو حل مشكلة تصليح السيارة، وإن ضبط التكييف، فلن يحتاج إلى شيء آخر، فيبدأ -والعياذ بالله- يعصي الله، ما دام محتاجًا لله تجده خائفًا، خائفًا، يقول: إن عصيت ستضيع من يدي، وتسوء أحوالي، وبمجرد أن يشعر أن الأمور استقرت؛ يبدأ يطغى.

فهم لما قضوا فترة كان فيها السد قائمًا لا يقع، والمياه معتدلة، والجنات ما زالت تكبر، ولا يتعبون، ثم كفروا، ولم يحدث شيء، سجدوا للشمس ولم يحدث شيء، ظلوا فترة على هذه الحال، ولم يحدث شيء؛ بدأ الطغيان، فربنا -سبحانه وتعالى- هنا يعاقبهم {فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ}[سبأ:١٦].

الله -عز وجل- يعطي كيفما شاء -سبحانه وتعالى-، ويأخذ كيفما شاء -سبحانه وتعالى-، الملك ملكه -سبحانه وتعالى-، الله -عز وجل- إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، الله -عز وجل- أرسل عليهم السيل قال للسيل أن يقع، إذًا سيقع، والله حتى وإن أحكموا بناء السد، واستخدموا له الإسمنت، أو صنعوه من الفولاذ، إن قال له ربنا أن يقع فسيقع؛ لهذا هنا ربنا سبحانه وتعالى لم يقل كيف وقع.

أغلب المفسرين يقولون: إن ربنا سلط دواب الجرذان والفئران عليه، فظلت تأكل في السد إلى أن وقع.

بعض المفسرين المتأخرين قالوا: هذا الكلام مستحيل، لا بدَّ أنهم انشغلوا بحروب داخلية، ونسوا أن يرمموا السد إلى أن وقع.

أيًّا كان، الله -عز وجل- قدَّر ذلك؛ إذًا سيحدث، فلا يعتقد أحد مثلًا أنه طالما البترول موجودًا؛ إذًا سنظل أغنياء دائمًا! لا، ربنا يمكنه أن يقول للبترول أن يغور في الأرض {إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ} [الملك: ٣٠] لذا، لا يعتقد أحد أن الأسباب ستظل كما هي، كل شيء يمكن أن يُحوَّل ويُقلب في لحظة.

لذلك ربنا -سبحانه وتعالى- قال هنا: إنه -عز وجل- عندما يعطي؛ يعطي بغير حساب. عندما ترى هاتين القصتين: قصة سيدنا داود، وسيدنا سليمان، ومقابلهم قصة سبأ، وترى الملك الرهيب، ربنا ألان الحديد، وسخر الريح، {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ}، ثم كل هذا العطاء، والإيمان الذي انتشر في الدنيا، كل هذا توقف بسبب ماذا؟ {دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ} دابة في الأرض أكلت العصا؛ فخرَّ سيدنا سليمان، والجن توقف عن العمل.

وكل العطاء الرهيب الخاص بسبأ: جنتان عن اليمين والشمال، وكل العطاء المبهر هذا تدمَّر بماذا؟ أن فأر أكل السد، أو أيًّا كان ما حدث.

إذًا، الله -عز وجل- يعطي بغير حساب، ويسلب بأقل الأسباب، الله -عز وجل- قادر سبحانه وتعالى، مهما كان الإنسان صحته قوية، ممكن نقطة دم صغيرة تتجلط في مكان لا يستطيعون الوصول إليه فيحدث له شلل. يجب على الإنسان ألا يغتر، مهما اعتقد أن الدنيا كلها معه أو أنه أخذ كل الأسباب، الله -عز وجل- قادر بأقل الأسباب... كما قيل إن النمرود مات ببعوضة عندما قال: أنا أحيي وأميت، ربنا سلط عليه البعوض.

لما يأجوج ومأجوج يعثوا في الأرض فسادًا وربنا -سبحانه وتعالى- أوحى إلى عيسى -عليه السلام- (أن حرز عبادي إلى الطور، فإني لي عباداً لا يدان لأحد بقتالهم)[٢]؛ أي لا يقدر أحد أن يحاربه

[٢] [عن النواس بن سمعان الأنصاري:] ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ الدَّجّالَ ذاتَ غَداةٍ، فَخَفَّضَ فيه وَرَفَّعَ، حتَّى ظَنَنّاهُ في طائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمّا رُحْنا إلَيْهِ عَرَفَ ذلكَ فِينا، فَقالَ: ما شَأْنُكُمْ؟ قُلْنا: يا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرْتَ الدَّجّالَ غَداةً، فَخَفَّضْتَ فيه وَرَفَّعْتَ، حتَّى ظَنَنّاهُ في طائِفَةِ النَّخْلِ، فَقالَ: غَيْرُ الدَّجّالِ أَخْوَفُنِي علَيْكُم، إنْ يَخْرُجْ وَأَنا فِيكُمْ، فأنا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وإنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتي علَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إنَّه شابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ، فمَن أَدْرَكَهُ مِنكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عليه فَواتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ، إنَّه خارِجٌ خَلَّةً بيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِراقِ، فَعاثَ يَمِينًا وَعاثَ شِمالًا، يا عِبادَ اللهِ فاثْبُتُوا، قُلْنا: يا رَسُولَ اللهِ، وَما لَبْثُهُ في الأرْضِ؟ قالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ

وعاثوا في الأرض فسادًا ودمروا، شربوا البحيرة الكاملة، وقالوا: علونا أهل الأرض الآن نعلو أهل السماء! ورموا أسهم في السماء ونزلت الأسهم مخضبة بالدماء. فقالوا: والآن علونا أهل السماء! فسلط الله عليهم النَّغف.

تخيل ربنا يقول لسيدنا عيسى: لن تقدر عليهم، ثم يموتون بأشياء بسيطة! حشرات بسيطة هكذا! النَّغَف الذي يصيب الإبل، سلط الله -عز وجل- عليهم النَّغف! ما هذا؟ الله -عز وجل- قادر إذا أعطى أن يعطي بغير حساب، وإذا سلب قد يسلب بأقل الأسباب.

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} [سبأ:١٦] قيل: كلمة العرم معناها: السيل الضخم، وقيل العرم: اسم للسد، وقيل إن هذا المبنى ما بين جبلين ويمنع نزول الماء اسمه العرم. وكان قبل سبأ، اليمن لا تقوم لهم حضارة، كانت منطقة جبلية وكلما نزلت الأمطار -لأنها جانب المحيطات- تغرق؛ فوفقوا من عهد سبأ إلى بناء سد بين الجبال، وصنع حفر في السد تجلب لهم مقدار الماء الذي يريدونه؛ فكان -السد- سببًا لبناء العمران عندهم، وانتشار الجنات، وفعلًا كانت عندهم أودية، وكانت موطنًا في الجزيرة العربية كلها،

كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، فَذلكَ اليَوْمُ الذي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فيه صَلَاةُ يَومٍ؟ قالَ: لَا، اقْدُرُوا له قَدْرَهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، وما إِسْرَاعُهُ في الأرْضِ؟ قالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي علَى القَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فيُؤْمِنُونَ به وَيَسْتَجِيبُونَ له، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عليهم سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ ما كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتي القَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عليه قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عنْهمْ، فيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ ليسَ بأَيْدِيهِمْ شيءٌ مِن أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بالخَرِبَةِ، فيَقولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ بَعَثَ اللَّهُ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ علَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ منه جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حتَّى يُدْرِكَهُ ببَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ منه، فَيَمْسَحُ عن وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بدَرَجَاتِهِمْ في الجَنَّةِ، فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ أَوْحَى اللَّهُ إلى عِيسَى: إنِّي قدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَانِ لأَحَدٍ بقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ علَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ ما فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فيَقولونَ: لقَدْ كانَ بهذِه مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حتَّى يَكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِن مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ اليَومَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ اللَّهُ عليهمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الأرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى اللهِ، فيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأرْضَ حتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَومَئذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ في الرِّسْلِ، حتَّى أنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعليهم تَقُومُ السَّاعَةُ. ٧٤٨٤- [١١١-...] حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ السَّعْدِيُّ، حَدَّثَنَا عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ، وَالْوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، قالَ ابنُ حُجْرٍ: دَخَلَ حَدِيثُ أَحَدِهِما في حَدِيثِ الآخَرِ، عن عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ، بهذا الإسْنَادِ، نَحْوَ ما ذَكَرْنَا. وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: لقَدْ كانَ بهذِه مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حتَّى يَنْتَهُوا إلى جَبَلِ الخَمَرِ، وَهو جَبَلُ بَيْتِ المَقْدِسِ، فيَقولونَ: لقَدْ قَتَلْنَا مَن في الأرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَن في السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بنُشَّابِهِمْ إلى السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللَّهُ عليهم نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا وفي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ: فإنِّي قدْ أَنْزَلْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَيْ لأَحَدٍ بقِتَالِهِمْ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٩٣٧ • [صحيح]

وأصبحت اليمن معروفة أنها منطقة زراعية ومنطقة فيها جنات؛ لأن ربنا وفقهم لفكرة السد. فربنا دمَّر لهم هذه النقطة.

أحيانًا يكون مركز قوة دولة ما على شيء معين، كالبترول مثلًا، مركز قوة اقتصاد دولة على شيء معين، الله –عز وجل– قادر أن يسلبهم هذا الشيء، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْ} [سبأ:١٦].

إذًا تأمل، فعلًا الله –عز وجل– عندما يبدل النعمة؛ الإنسان يتألم، كانوا يقضون حياتهم في جنات ولذة ونعيم، تأمل في الألم، ليس فقط أنها زالت، لا؛ بل لأنه ترك لهم أشياء بسيطة تؤلمهم، {وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ}، قالوا هذا الخمط قيل: شجر الأراك له ثمرة مُرَّة، وقيل: الخمط هنا معناها: أكل مُر.

{جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ} أي: أكل مُر، {وَأَثْلٍ} أيضًا طعمه مُر، وفيه شوك، {وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}، السدر: أحسن شيء، أحسن من الخمط وأحسن من الأثل.

لهذا، عندما ذكر ربنا السدر ماذا قال؟ قليل، قال "وَشَيْءٍ" شيء أصلًا هذه كلمة تدل على القليل، {وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}، تخيل مدى الحسرة التي هم فيها!

تخيل لو أن شخصًا مؤمن بهذا الخطاب في أيام قريش، ويعيش في قمة الاقتصاد؛ بسبب مكة وموقعها الاقتصادي ووجود الكعبة، وشرحنا المرة السابقة موضوع الأصنام، عندما قلنا إن غالب الحرب بين النبي ﷺ والمشركين حرب اقتصادية.

الشاهد أن هذا يمكن أن يُدمَّر في لحظة، كل هذا يمكن أن يُدمَّر في لحظة، فربنا –سبحانه وتعالى–، يقول لهم: أنا قادر أن أبدل عليكم هذه النعمة، فلا يغتر أحد، وكثيرًا ما رأينا دول قامت وانهارت، وكثير من الناس ظلموا وتجبروا ثم انهاروا، لذا؛ لا يغتر أحد بأي نعمة ربنا –سبحانه– أعطاها له؛ لأن الله –عز وجل– قادر على أن يسلب منه هذه النعمة.

{وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ:١٦-١٧].

قلنا إن هذا الخطاب بالنسبة للمشركين تهديد، وبالنسبة للمؤمنين تطمين، الخطاب بالنسبة للمشركين: أن الله عز وجل يملك كل شيء، فلا تغتروا بما معكم من قوة، وبالنسبة للمؤمنين تطمين، اطمئنوا؛ مهما أوتي أهل الباطل من مال وعتاد فإن الله –عز وجل– قادر على أن يأخذ منهم ذلك وأن يعطيكم إياه، لذلك لما سمع الرجلُ المؤمن صاحبَ الجنتين الكافر يقول: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا} [الكهف: ٣٥]، قال له: الوضع يتبدل بكلمتين: {فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ..} [الكهف:٤٠] ... الأمر ينتهي.

{فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ}، والتي معك.. {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا}. يقول له: الدنيا يمكن أن تُقلب في لحظة.. ربنا يعطيني، ويأخذ منك، يمكن للأمر أن ينتهي.

أهل الايمان دائمًا مطمئنون بالله –سبحانه وتعالى–؛ ولذلك نحن نقول دائمًا: لا تنسَ بداية السورة أنها تتكلم عن الملك التام لله؛ لذلك ستأتي آيات لم تذكر في القرآن إلا في هذا الموطن، آيات تتحدث عن التجريد التام للبشر، أنهم لا يملكون شيئًا، تأتي الآيات في النهاية تقول إن الملك كله لله –سبحانه وتعالى–، البشر لا يملكون شيئًا، بل حتى الأنبياء كل ما لديهم من النعم ربنا سبحانه وتعالى هو الذي أعطاهم إياها، فالله –عز وجل– هو الذي ألان لداوود الحديد، الله –عز وجل– هو الذي أسال عين القطر لسليمان، الله –عز وجل– هو الذي سخر الريح لسليمان، –سبحانه وتعالى–، فليطمئن أهل الإيمان بالله –سبحانه وتعالى– ولا يطمئنون بسبب، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} [الحج:١١]، هذه الهاء تعود على ماذا؟ على الخير.. {اطْمَأَنَّ بِهِ}، أي: هو لا يطمئن إلا بالمال، تقول له أنت مطمئن؟ يقول: نعم مطمئن –يضع يده في جيبه أولًا–، نعم أنا مطمئن، هو لا يطمئن إلا عندما يكون معه الخير، أي: المال الكثير، دائمًا الخير في القرآن تأتي بمعنى: المال الكثير {إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ} [البقرة:١٨٠] أي: إن ترك مالاً كثيرا. {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: ٨] أي: المال الكثير، {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ} يعني: إن كان معه مال كثير يطمئن، {اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ}، لأنه ليس مطمئنًا بالله {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨].

فربنا هنا –سبحانه وتعالى- يقول {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}[سبإ: ١٧]، يقال هنا هل نجازي إلا الكفور؟ أن هذا كان عذاب استئصال للجنات، هذه معاملة ربنا للكفار، يكون عقاب ليرجعوا، لكن ربنا لا يستأصل ما معهم، فعقاب الكفار يكون عقاب استئصال، إنما عقاب المؤمنين يكون عقاب (تأديب)، عقاب الكفار عقاب (تعذيب).

فالنعمة الأولى: نعمة الرزق، ربنا يقول لهم: كنتم في رغد من العيش وذهبت عنكم نعمة الرزق بسبب المعصية.

النعمة الثانية: نعمة الأمن.. {وَجَعَلنا بَينَهُم وَبَينَ القُرَى الَّتي بارَكنا فيها قُرًى ظاهِرَةً وَقَدَّرنا فيهَا السَّيرَ سيروا فيها لَيالِيَ وَأَيّامًا آمِنينَ * فَقالوا رَبَّنا باعِد بَينَ أَسفارِنا}[سبأ:١٨-١٩].

ما معنى هذا الكلام؟

{وَجَعَلنا بَينَهُم وَبَينَ القُرَى الَّتي بارَكنا فيها} قيل {القُرَى الَّتي بارَكنا فيها} هي الشام. أين هم؟ في اليمن، تخيَّلوا، هم في اليمن، و{القُرَى الَّتي بارَكنا فيها} هي الشام، فمعنى الآية: وجعلنا بينهم وبين الشام قرى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير، فعندما يريد أحد من قوم سبأ وهو في اليمن أن يسافر إلى الشام؛ فجعل الله له محطَّات طوال السفر فلا يحتاج أن يتزوَّد!

هو فقط يمشي طوال النهار، وعند العصر سيجد قرية ومكانًا يدخل ينام فيه، ويأكل ويشرب، ثم يستيقظ ويتابع السير حتى الليل، فيدخل لينام، وطوال مسيره هناك محطَّات للاستراحة، جعلها الله لهم طوال الطريق فلا يحتاج أن يتزوَّد للسفر، تخيل!

معنى الآية: وجعلنا بينهم وبين الشام أماكن ظاهرة، {قُرًى ظاهِرَةً} أي: أماكن جانبية، فهو يمشي وإذا أراد أن يستريح، يجد قرية فيدخل ليرتاح فيها.

معنى كلمة {وَقَدَّرنا فيهَا السَّيرَ} أي أن السير كان مقدَّرًا بمحطَّات، ليست المسافة بعيدة عن القرية ثم تكون التي تليها قريبة، لا بل المسافات متساوية من تقدير ربنا –سبحانه وتعالى-.

وقيل إن ربنا ألهمهُم أن ينفذوا هذه الفكرة، وقيل إنهم أقاموا اتفاقيات مع كل القبائل، بسبب جناتهم ورغدهم واقتصادهم العالي، فكانت كل القبائل تتمنى أن تخدِم سبأ، فكانوا يُعِدّون لهم استراحات،

وكانوا معروفين على مستوى الطريق كله، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منهم، فكان المسافر منهم يمشي من اليمن إلى الشام لا يحتاج إلى الزاد، ولا يحتاج أن يُعدَّ حقيبة ويسافر، بل متى ما أحبّ أن يرتاح سيدخل يرتاح في محطات الاستراحة التي على طول الطريق.

{وَجَعَلنا بَينَهُم وَبَينَ القُرَى الَّتي بارَكنا فيها} هذه الشام، {قُرًى ظاهِرَةً} هذه محطَّات الاستراحة، {وَقَدَّرنا فيهَا السَّيرَ} أي أنَّ السير مقدَّر بمسافات واحدة، المسافات قريبة، ما بين القرية والتي بعدها نفس المسافة.

فكان يسير حتى يأتي وقت العصر ويدخل ليستريح في القرية..

يسير حتى الليل ويدخل ليستريح في القرية..

يستيقظ في الصباح ويسير حتى الظهر ثم يدخل ليستريح في القرية..

وهذا من تقدير ربنا لهم، ومن كمال نعمة ربنا عليهم.

فماذا قالوا؟ يقول الله لهم: {سِيرُوا فِيهَا} لم يقل: "سيروا بينها"، كأنَّ المسافر لا يخرج خارج القرية، كلمة {فِيهَا} تعني داخل القرية، من سبأ حتى الشام يذهب ويعود وكأنه لم يسافر، كأنه يسير داخل بلده.

تخيَّل لو أنك عندما تسافر من المنصورة للقاهرة لست محتاجًا لسيارة ولا لزاد، أو تسافر مثلاً لبلد آخر وأنت بالكاد ستمشي قليلًا ثم تجد قرية فتدخل لترتاح، والناس تُطعمك وتسقيك وتعطيك ما تشاء، وبعد ذلك تمشي ولست محتاجًا لتتزوَّد.

{سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ} بدأ بالليالي قبل الأيام؛ لأنه في طريق السفر يخاف الإنسان بالليل أكثر من النهار، فيقول ربنا لهم: اطمئنوا بالليل كاطمئنانكم في النهار، ستمشي بالليل في قمة الاطمئنان كما تمشي بالنهار، لذلك قدَّم الليالي على الأيام..

{سيروا فيها لَيالِيَ وَأَيّامًا} وأيضًا جاءت جَمْعًا، لماذا؟! يقول ربنا لهم: لو ظللتم تمشون شهرًا لن تتعبوا، فأنت كلما تتعب ستدخل لترتاح في قرية وتأكل وتشرب وتكمل سيرك.

{سيروا فيها لَيالِيَ وَأيّامًا آمِنينَ}، هذه أهمّ نعمة؛ نعمة الأمن، نعمة الرزق ونعمة الأمن: {الَّذي أَطعَمَهُم مِن جوعٍ وَآمَنَهُم مِن خَوفٍ}[قريش:٤].

فماذا قالوا؟ طلبوا طلبًا عجيبًا جدًّا!

{فقالوا ربنا باعِد بَيَن أَسفارنا}[سبأ:١٩]، وفي قراءة: (ربَّنا بعِّد) أي فيها شدَّة وتضعيف؛ يا رب نحن لا نريد أن تكون المسافات قريبة جدًّا، نحن نريد أن تكون مسافات واسعة، وتكون صحراء، ونريد أن نركب الجمال ونسافر ونربط الحقائب، أنا ظللت أقرأ لكثير من المفسّرين لماذا طلبوا هذا الطلب العجيب؟!

بعضهم قال: هذا نوع من بطَر النعمة، ملُّوا، قالوا نريد أن نُجرِّب؛ كالذي يعيش فترة في أمن مثلًا فيقول: نريد أن نُجرِّب الحروب نحن مللنا! فهذا نوع من الخلل العقلي، سلط ربنا عليهم عقولهم الضيقة فأفسدتهم.

تخيَّل أن يطلبوا من ربنا أن يزيل هذه النعمة! بالضبط كالذين قالوا: {وَإِذ قالُوا اللَّهُمَّ إِن كانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ فَأَمطِر عَلَينا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ}[الأنفال:٣٢]!

تخيَّل أن يطلبوا من ربنا أن تصبح المسافات بعيدة، وأن تصبح صحراء، وأن يتعرَّضوا للأخطار! بعض المفسّرين قال مستغربًا: هل هناك إنسان عاقل يطلب هذا؟!

بعضهم قال: لا، الذي حصل أنَّ الأنبياء لمّا جاؤوا لهم وقالوا لهم: اتقوا الله، فالله أنعم عليكم، وجعل لكم قرى ظاهرة طوال الطريق، وهذا من نعمة ربكم عليكم، قالوا لهم: نحن لا نريد شيئًا من ربنا! نحن عندنا القوة على السَّفر.

كأن تقول لأحدهم: ربنا أعطاك وأعطاك، ويقول: لا أريد –والعياذ بالله–، فكان الردُّ جحودًا وإعراضًا، عندما ذكَّرهم الأنبياء بنِعم ربنا عليهم، قيل إن الله تعالى أُرسل لهم ثلاثة عشر نبيًا من بعد سيدنا سليمان، فلما ذكَّروهم قالوا ذلك إعراضًا وجحودًا، –من المفسرين الذين قالوا هذا ابن عاشور–، كان مستغرَبًا أن يكون إنسانٌ عاقلًا ويطلب هذا الطلب!

فقالوا: نحن لا نريد شيئًا، حتى لو ذهبت هذه القرى فنحن عندنا القدرة على السفر، فقالوا ذلك استكبارًا.

بعضهم قال: لا، هم طلبوا ذلك لأنَّه كان هناك كبراء في البلد، فيشعرون أنهم والمستضعفين سواء، فهم يذهبون ويحضرون الأكل ويرجعون، والمستضعفون كذلك، فالذين معهم العدة والعتاد والإبل وعدة السفر قالوا: يا رب اجعل لنا صحراء حتى نتميَّز عن القوم الضعفاء.

كمن لديه سيارة وآخر ليس لديه، فإن كانت البلد ليست بحاجة لسيارات، فالذي معه سيارة يقول: هل سأصبح متساويًا مع من ليس عنده سيارة؟! يا رب اجعل كل المسافات بعيدة، يا رب اجعل البلاد بعيدة عن بعضها، حتى يظهر الذي معه سيارة، فهو متكبر على غيره، فالذي دعا بهذا هم من معهم الأموال، والذين عندهم عدَّة السفر، قالوا: يا رب باعِد بين أسفارنا..

لذلك هناك قراءة عجيبة جدًا: "قالوا ربُنا بَاعَد بين أسفارنا"؛ يقولون ذلك على هيئة التَّشكِّي، نحن قلنا إن هناك قراءة: "ربنا باعِد" هم يطلبون من ربنا: يا رب أبعِد السفر.

القراءة الثانية: "بعِّد" أي: يا رب زِد في البعد، نحن لسنا خائفين.

القراءة الثالثة: أنَّ المستضعفين يشتكون عندما فعل ربنا هذا، قالوا: ما هذا! ربُّنا باعَد بين أسفارنا! فصُدِموا لما أهلك الله هذه القرى التي في المنتصف، وقالوا: ما هذا ربنا باعَد بين أسفارنا؟! بدأوا يشتكون لربنا.

مثال لهم -مع الفارق طبعًا-: لما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر وجاءه أعرابيٌّ وقال: يا رسول الله هلكت المواشي وأقحطت الأرض وليس هناك مطر، فادعُ الله لنا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ظلَّ يدعو فنزل المطر[٣].. ففي الأسبوع الثاني جاء الأعرابي للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو على المنبر فقال له: يا رسول ادعُ الله أن يكفَّ المطر، غرقت الدنيا! فضحك النبي صلى الله عليه وسلم يتعجَّب لسرعة ملالة ابن آدم).

---

[٣] [عن أنس بن مالك:] جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ المَواشِي، وتَقَطَّعَتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللَّهَ، فَدَعا اللَّهَ، فَمُطِرْنا مِنَ الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ، فَجاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، تَهَدَّمَتِ البُيُوتُ، وتَقَطَّعَتِ السُّبُلُ، وهَلَكَتِ المَواشِي، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ على ظُهُورِ الجِبالِ والآكامِ، وبُطُونِ الأوْدِيَةِ، ومَنابِتِ الشَّجَرِ فانْجابَتْ عَنِ المَدِينَةِ انْجِيابَ الثَّوْبِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٠١٩ • [صحيح]

الإنسان يملُّ بسرعة، أنت كنت في الأسبوع الماضي تقول لا يوجد، الآن تحزن لأن المطر نزل!

فهُم قالوا: يا رب نحن منزعجون من موضوع السفر القريب هذا، فربنا بعَّد لهم من الأسفار، بعد ذلك قالوا: يا رب نحن منزعجون من موضوع السفر البعيد هذا فقرّبه مرة أخرى! فهذا استهزاء، هذا عدم شعور بنعمة ربنا –سبحانه وتعالى–، مثل الذي يدعو: يا رب أريد أن أتزوج، فلما تزوج يقول: ربنا باعَد بين أسفارنا!

{فَقالوا رَبَّنا باعِد بَينَ أَسفارِنا وَظَلَموا أَنفُسَهُم فجعلناهم أحاديث} بعض المفسّرين قال قولًا عجيبًا جدًا، قالوا: طوال مدة سيرهم في هذه القرى الظاهرة الناس تراهم؛ فقالوا: لا؛ نحن نريد سفرًا طويلًا حتى نعمل المعاصي كيفما نشاء ولا يرانا أحد، فقالوا: يا رب باعد بين أسفارنا، اجعل هذه الأماكن كلها صحراء؛ حتى نعمل المعاصي كما نريد، وهذا أحد معاني قول الله –عز وجل: {فَقالوا رَبَّنا باعِد بَينَ أَسفارِنا... وَظَلَموا}.. أي: وعملوا المعاصي عندما جعلها الله صحراء.

الشاهد أن الإنسان أحيانًا يملُّ نعمة ربنا، وهذه مصيبة! ألا يشعر الإنسان بنعمة ربنا عليه، كثير منا لا يشعر بالنعمة إلا عندما تزول، ويتأ لم عندما تزول عنه، طالما هي موجودة يكون منزعجًا، تراه منزعجًا من الأولاد، ومن عمله، ومن سيارته، لا يعرف قيمة هذه النعمة، تجده يقول: "يا رب تُب علينا، يا رب.."، ولا يعرف قيمة النعمة إلا عندما تزول عنه، ويملُّ النعمة، فالإنسان ملولٌ ضجِر!

فيجب على الإنسان أن يقدّر نعمة الله –عز وجل– ويعرف مدى نعمة ربنا –سبحانه وتعالى– عليه.

فقالوا: {ربنا باعِد بَينَ أَسفارِنا} الإنسان أيضًا دائمًا يريد أن يشعر أنه –والعياذ بالله– ليس محتاجًا لربنا، كما نقول دائمًا: الإنسان يطغى لما يرى نفسه مستغنٍ، ما دام محتاجًا لربنا يكون مكسورًا؛ لذلك لما قال سيدنا موسى لبني إسرائيل وهم في التيه: ربنا سينزل لكم المنَّ والسلوى وتطيعون أوامره، بنو إسرائيل لا يريدون أن يطيعوا أوامر ربنا، فقالوا إذا لم نطع أوامره لن نأكل المن والسلوى؟ هل سنبقى هكذا محتاجين لربنا؟! فقالوا لموسى: {فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ..} [البقرة:٦١] نحن نريد شيئًا نزرعه بأيدينا ولا ننتظر أن ينزل علينا من السماء، حتى –والعياذ بالله– لا يظلوا محتاجين لربنا، يظنون أنهم بهذا يستغنون عن الله!

فهؤلاء لما قال لهم الأنبياء: أنتم تحتاجون ربنا في السفر، قالوا: لا نريد –والعياذ بالله–، الإنسان يريد أن يشعر أنه هو القادر –والعياذ بالله–، يريد أن يشعر أنه ليس محتاجًا لأحد، يريد أن يكسر كل الحواجز، لذلك الغرب الآن يريد أن يصِل إلى أن يقول: نحن ننزل المطر، نحن سنكتشف سر الروح، وسنكتشف مكانًا آخر نعيش فيه خارج الأرض، يعتقد أنه سيخرج خارج قدرة ربنا! والله مهما عمل، ومهما أُوتي من أسباب لن يخرج، {لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}[الرحمن:٣٣].

{فقالوا رَبَّنا باعِد بَينَ أَسفارِنا وَظَلَموا أَنفُسَهُم فَجَعَلناهُم أَحاديث وَمَزَّقناهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكورٍ}[سبأ:١٩]؛ جعلناهم أحاديث: بدأت الناس تقول أين أيام سبأ؟! وصار هناك مَثَل: "مزَّقناهم أو فرَّقناهم أيادي سبا" يحذفون الهمزة تخفيفًا؛ يقال عندما ترى أناسًا مجمعين، وهم في عيشٍ آمن، ثم يختلفون ويتفرقون ويشرَّدون في البلاد، يقال فيهم: هؤلاء مثل سبأ، "فُرِّقوا أيادي سبأ" أي: ساروا على نهج سبأ، فأصبحت سبأ مضرب مثل.

{فَجَعَلناهُم أَحاديث}، قد تكون دولة في قمة التقدم وبعد سنين تصبح من أفقر الدول، الله –عز وجل– قادر على كل شيء –سبحانه وتعالى–.

{فَجَعَلناهُم أَحاديث وَمَزَّقناهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ}؛ الله –عز وجل– أضحك وأبكى، الله –عز وجل– يعطي ويمنع، الله –عز وجل– يخفض ويرفع، الله –عز وجل– يقبض ويبسط، الله –عز وجل– يملك كلَّ شيء –سبحانه وتعالى– فهذه الآيات تجعل القلب ليس له إلا وِجهة واحدة: {إِنّي وَجَّهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرضَ حَنيفًا وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ}[الأنعام:٧٩]، القلوب عندما تتعلَّق بالله لا تحزن، القلوب عندما تتعلَّق بالله تظل مطمئنة آمنة، القلب عندما يتعلَّق بالله يعرف أنَّ كلَّ شيء بيده –عز وجل–، يعلم أنَّ كلَّ شيء يمكن أن يتغيَّر، فحالات الضحك قد تصبح بكاءً، وحالات الأمن قد تصبح فزعًا، وحالات الرزق قد تصبح ضيقًا، كلُّ شيء بيد الله –عز وجل–، (أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت سبحانك)[٤]، فهذه القصة توضّح أنَّ الله –عز وجل– يملك كلَّ شيء، وأنَّ الله –عز وجل– إذا أعطى قد يعطي بغير سبب، وإذا سلب قد يسلب بأقلِّ الأسباب.

---

[٤] [عن أبي موسى الأشعري:] عَنِ النبيِّ ﷺ، أنَّهُ كانَ يَدْعُو بهذا الدُّعاءِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتي وَجَهْلِي، وإسْرافِي في أمْرِي، وَما أنْتَ أعْلَمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذلكَ عِندِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَما أخَّرْتُ، وَما أسْرَرْتُ وَما أعْلَنْتُ، وَما أنْتَ أعْلَمُ به مِنِّي، أنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٧١٩ • [صحيح]

{إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكورٍ} إذًا الإنسان لا بدَّ له أن يصبر على الضرَّاء، وأن يشكر نعمة الله –عز وجل– عليه في السرَّاء، إذا أُصيب بضرٍّ يصبر ويحمد الله –عز وجل–؛ يقول ﷺ: (عَجَبًا لأمْرِ المؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له)[°] .

قال بعض العلماء استنباطًا من قول الله –عز وجل–: {وَجَعَلنا بَينَهُم وَبَينَ القُرَى الَّتي بارَكنا فيها قُرًى ظاهِرَةً}، قال: كذلك الدول المتقدِّمة لا تكون إلا بهؤلاء الثلاث؛ ويجب أن تُنفق أموال الدولة في ذلك:

- في توفير الرزق.
- وتوفير الأمن.
- وتسهيل طرق السفر.

فهذه الأمور الثلاثة تدلُّ على تقدُّم الدولة، فتكون فيها هذه الأمور: تسهيل الرزق، وأن يكون في البلد أمن، وأن تكون طرق السفر ميسَّرة ليس فيها تعسير.

{إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكورٍ}، العجيب هنا أنهم عندما سلَّط الله عز وجل عليهم السيل، ومزَّقهم كلَّ ممزَّق، لم يجتمعوا مرةً أخرى ويتوبوا، –وهم كانوا عشر قبائل– بل قالوا: نحن لم يعد لنا معاش في هذا البلد وتفرَّقوا، القبائل العشر تفرَّقوا بعدما كانوا كلُّهم العشرة مع بعضهم؛ فلذلك قال بعض العلماء: إنَّ معنى كلمة: {إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكور} أنَّ الإنسان عندما يُصاب بمصيبة يتوب إلى الله، لا يقول سأجد لي مكانًا آخر بدل أن أتوب! بل يتوب إلى الله وسيجمع الله عليه شمله مرةً أخرى.

{وَلَقَد صَدَّقَ عَلَيهِم إِبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعوهُ إِلّا فَريقًا مِنَ المُؤمِنينَ}[سبأ:٢٠] ما معنى: {صَدَّقَ عَلَيهِم إِبليسُ ظَنَّهُ}؟ إبليس أحيانًا يكون له نظرة في الناس، كما في أوَّل الخَلْق، إبليس قال لربنا –سبحانه

° [عن صهيب بن سنان الرومي:] عَجَبًا لأمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٩٩٩ • [صحيح]

وتعالى- أن هناك فريقًا سيتبعني {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[الحجر: ٤٠]، لكن هناك ناس سيمشون خلفي، هناك ناس أنا سوف أغويهم وأمنّيهم، فإبليس رأى وضع سبأ وقال: هؤلاء أستطيع أن أعمل معهم، وظنَّ أنهم سوف يطيعون كلامه، وصَدَق ظنُّه فيهم، فكلمة {صدَّق عليهم}، وفي قراءة: "صَدَق عليهم إبليس ظنه" أي أنَّ: إبليس ركّز على هؤلاء ليغويهم، وظنّه كان صحيحًا، لماذا؟ لما يرى إبليس حياة شخص مترف مثلًا يقول هذا يصلح لأن أغويه، شخص لا يحافظ على الذكر، شخص مترف لا يشكر النِّعم، شخص متضجِّر ليس مترفًا لكنه متضجّر، إبليس يقول: نعم هذا يصلح لأعمل عليه، هذا يمكن أن أغويه، هذا بمجرَّد إن أصابته فتنة سيقع مباشرةً؛ لأنه يجلس على الحَرْف، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ}[الحج:١١]، فإبليس له نظرة في الناس، المتضجِّر الكاره لحياته هذا يسهل على إبليس أن يفتنه.

وكذلك المنافقون، دائمًا تجد في القرآن كلمة: {وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} أن المنافق عندما يريد أن يخدع شخصًا لا يذهب لأي أحد، بل يذهب لمن يشك بأنه سيتبعه، من يستطيع أن يكلّمه ويسمع منه! لذلك أيضًا إبليس لما رأى معيشة سبأ بهذا الشكل؛ ليس فيها شكر، ليس فيها حمد لربنا -سبحانه وتعالى-، وليس فيها عبادة، فقال: هؤلاء يمكن أن أغويهم، وبالفعل أغواهم حتى عبدوا الشمس، فسلَّط الله عليهم سيل العرِم.

{وَلَقَد صَدَّقَ عَلَيهِم إبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعوهُ إِلّا فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ} قيل إنَّ فريقًا من الناس لما وجدوا قومهم عبدوا الشمس؛ تركوهم قبل انهيار السد.

{وَما كانَ لَهُ عَلَيهِم مِن سُلطانٍ إِلّا لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنها في شَكٍّ}[سبأ:٢١] فربنا -سبحانه وتعالى- يقول: إبليس ليس له سلطان قوة، إبليس لا يقوم بربطه وتقييده، هل رأيت في حياتك شخصًا في الشارع وقد قيّده أربعة شياطين وأخذوا يضربونه ويقولون له: انظر لتلك الفتاة، وهو يقول: لن أنظر اتركوني؟!

لا؛ بل مجرد أن يقول الشيطان له: انظر، فينظر، فهناك من هو منتظِر أصلًا لأمر الشيطان، هو عنده استعداد، فهذا الذي يظن الشيطان فيه أنه سيتبعه، فهو يأتي له، لذلك: {وقال الشيطان لَمّا قُضِيَ الأَمرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُم وَعدَ الحَقِّ وَوَعَدتُكُم فَأَخلَفتُكُم وَما كانَ لِيَ عَلَيكُم مِن سُلطانٍ إِلا أَن} إلا ماذا؟ {دَعَوتُكُم}، أنا فقط أرسلت لك دعوة! وهم أيضًا أرسلوا دعوات، وبذلوا جهدًا مضنيًا معك، وأنت لم

تسمع لهم، فإبليس يقول له: أنا كل عملي أني دعوتك، فلماذا سمعت كلامي؟ {إِلّا أَن دَعَوتُكُم فَاستَجَبتُم لي فَلا تَلوموني وَلوموا أَنفُسَكُم} [إبراهيم:٢٢] أنا لم أفعل لك شيئًا، أنا قلت لك انظر، أنت قلت لي: أين؟ والداعية الآخر قال لك لا تنظر، أنا دعوتك وهو دعاك!

فربنا يقول: {وَما كانَ لَهُ عَلَيهِم مِن سُلطانٍ} إلا الإغواء، أن يقول له: كذا، ويُحبِّب له فعل كذا، الإغواء أي أنَّ الشيطان يسير من ابن آدم مجرى الدم، أنَّ الشهوات تحبَّب للإنسان، فللشيطان قدرة على التزيين، هذه القدرة أعطاها ربنا للشيطان لماذا؟ {إِلّا لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنها في شَكٍّ} [سبأ:٢١]، بمعنى كلما ازداد يقينك بالآخرة ازددتَ بُعدًا عن الشيطان.

بالأمس كنا في جنازة؛ وأنت عندما ترى منظر القبر تكون في تلك اللحظة أبعد الناس عن الشهوات، وعلى قدر ابتعادك من تذكر هذه اللحظات، على قدر رجوعك مرة أخرى للشهوات.

وتلك هي الإشكالية؛ هذا مثل شخص متهور في قيادته، فوقع له حادث لهذا السبب واستمر على فترة علاج بعدها، فبعد مرور تلك الفترة وعودته للقيادة تجده أكثر حذرًا وانتباهًا للطريق والإشارات إلى أن ينسى لكن بعد فترة يعود لنفس تهوُّره مرة أخرى.

فهكذا الإنسان؛ عندما يتذكر القبر والدار الآخرة تجده حذِرًا {أَمَّن هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجِدًا وَقائِمًا يَحذَرُ الآخِرَةَ} [الزمر: ٩].

فالذي يَحيَا والآخرةُ في قلبِهِ حاضرةٌ، تجِدهُ يعيش وهو حَذِر، لا يتكلم إلا بعد تفكير فيما سيتكلم به، ولا يعمل قبل أن يسأل فهو حذر.

فالله -عز وجل- يقول إن الشيطان يزداد تسلّطه على الشاك في الدار الآخرة {إِلّا لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنها في شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ حَفيظٌ} [سبأ:٢١].

لذلك يقول الله -عز وجل-: {قُلِ ادعُوا الَّذينَ زَعَمتُم مِن دونِ اللَّهِ}، انتقل الخطاب هنا للمشركين بعد نهاية القصتين -قصة سيدنا داوود وسليمان وقصة سبأ- من نموذج شكر النعمة لنموذج كفر النعمة، وكنا قد تحدثنا عن بعض لطائف وجود قصة سيدنا داوود وسليمان في هذا السياق، ففي قوله: {ادعُوا الَّذينَ زَعَمتُم مِن دونِ اللَّهِ لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ} [سبأ:٢٢]، ما علاقة تلك الآيات بعد ذكر هاتين القصتين؟

الإمام الطبري يقول هنا معنى رائع جدًا، يقول إن السورة بدأت بأن الله –عز وجل– يملك كل شيء، وبعدها هددهم فقال لهم: {أَفَلَم يَرَوا إِلى ما بَينَ أَيديهِم وَما خَلفَهُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرضِ إِن نَشَأ} نشأ ماذا؟ {نَخسِف بِهِمُ الأَرضَ أَو نُسقِط عَلَيهِم كِسَفًا مِنَ السَّماءِ إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً}[سبأ:٩]، يقول الله –عز وجل لهم: أنا أملك الأرض، أملك السماء، قادرٌ على أن أخسف بكم الأرض أو أنزل عليكم كسفًا من السماء، وبعدها أتى لهم بنموذج كيف أنّه –عز وجل– يُسخّر ما يشاء، ويفعل ما يشاء –سبحانه وتعالى– فالملك ملكه؛ ألان الحديد وسخّر الرياح وأسال عين القِطر وسخّر الجن وقدَّر الجنَّات وقدر القُرى الظاهرة ثم أزال كل ذلك.

فأتى لهم بنموذج للإعطاء ونموذج للسلب، ليقول لهم بعد تلك النماذج: ماذا فعلت لكم آلهتكم؟ الله –عز وجل– فعل ذلك بأوليائه ورفع ذلك عن أعدائه.

أما أنتم ألستم تعبدون تلك الآلهة من دون الله، فماذا فعلت لكم؟

هل ألانت الحديد لداوود؟ هل سخّرت الريح والجن لسليمان؟ هل أعطت هذه الجنات ثم سلبتها؟ {قُلِ ادعُوا الَّذينَ زَعَمتُم مِن دونِ اللَّهِ} هل عملت لكم شيئًا؟ لا لم تفعل.

{لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ} هذه آيات سنسميها ((التجريد التام))، آيات الملك التام لله وحده، وأن الخلق لا يملكون مثقال ذرة.

هذه الآيات عندما تعيشها بشكلٍ صحيح، لا تجد في قلبك غير الله، وتكون وجهتك واحدة ((لله))، فتكون جالسًا صباحًا كل يوم سعيد بذكر الله؛ تقول "أصبحنا وأصبح الملك لله" بعدها مباشرةً ماذا تقول؟ "والحمد لله"، لِمَ ذُكر الحمد لله؟ لأنّ الملك له وحده؛ لأنّه لو مَلك الملك أكثر من شخص، فأنت تستيقظ صباحًا مشتتًا تريد أن ترضي هذا وذاك.

إذًا هناك فرق بين {رَجُلًا فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ} وبين {وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ}.. {هَل يَستَوِيانِ مَثَلًا}؟ {الحَمدُ لِلَّهِ بَل أَكثَرُهُم لا يَعلَمونَ}[الزمر:٢٩] .

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

نقول هذه الآيات هي آيات التجريد التام أن الخلق لا يملكون شيئاً فيقول الله عز وجل: {قُلِ ادعُوا الَّذينَ زَعَمتُم مِن دونِ اللَّهِ} ادعوهم واطلبوا منهم هل يملكون لكم شيئًا؟

فبدأ أول شيء: {لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ} كملك، هم لا يملكون شيئًا، {لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ}، لا يملكون أي شيء استقلالًا، أي: لا يوجد شيء يخصّهم، لا نجم من النجوم ملك لهم أو جزء من الكرة الأرضية ملك لهم، لا شيء في الكون يتصرفون فيه كيفما يشاؤون؛ حتى الشمس ليست ملك لهم {إِنَّ اللَّهَ يَأتي بِالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ فَأتِ بِها مِنَ المَغرِبِ}[البقرة:٢٥٨]

فلا الشمس ملك لهم، ولا القمر ولا الزرع، {لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ}.

سنرى أربع مراحل للتجريد؛ وأولها: سحب البساط من أيدي الخلق، فهم لا يملكون شيئًا

الثانية: هل هم مشاركون لله في ملكه؟ فهل يشاركونه في الشمس، في الأرض، في الرياح، في الرزق، في الزرع، في الحيوان، في المجرات، في الكواكب؟

{وَما لَهُم فيهِما} أي: في السماوات والأرض {مِن شِركٍ} أي: ليسوا مشتركين مع الله -عز وجل- في ملك ولا يمتلكون شيئًا.

كأن أقول لشخص: أنت لست مشاركًا في هذا البيت في شيء، ولا تملك فيه شيئًا.

الثالثة: حسنًا؛ إذًا هم لا يملكون شيئًا ولا يشاركون الله في ملكه بشيء، فهل هم يساعدون الله -عز وجل- في شيء؟

تعالى الله -عز وجل- عمّا يقولون، {وَما لَهُ} أي: لله {مِنهُم} أي: من شركائهم {وَما لَهُ مِنهُم مِن ظَهيرٍ}، أي: وما لله من شركائهم من ظهير، أي: معين، كلمة ظهير تعني أن أحدًا يشد ظهرك ويساعدك، فالله -عز وجل- يقول إنهم لا يملكون أي شيء لا استقلالًا ولا مَشاعًا -أي شِركَةً- ولا يساعدونه ولا يفعلون أي شيء في الكون.

مثل من يعبدون عيسى -عليه السلام-، لم تعبدونه؟ هل هو يملك شيء في الكون؟ لا.

هل هو مشارك في شيء في ملك الكون؟ لا.

هل يساعد الله -عز وجل- في تدبير الكون؟ لا.

إذًا لماذا تعبدونهم؟!

فتلك ثلاثة أشياء انتفت عن معبوداتهم، {لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ}

والمؤمن عندما يسمع هذه الآيات يزداد اطمئنانًا؛ لأن الله -عز وجل- يملك كل شيء -سبحانه وتعالى-، فمن يخاف من أهل الباطل لأنّ عندهم قوة وعندهم قنابل و...، حسنًا أين في قلبك أن الله -عز وجل- يملك كل شيء؟ نواصيهم بيده -سبحانه وتعالى-، لذا يجب أن يكون المؤمن مطمئنًا بالله -سبحانه وتعالى-.

المسألة الرابعة: هل هناك أحدٌ وسيط عند الله يشفع عنده؟

{وَلا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِندَهُ...}[سبأ:٢٣]

أول ثلاثة أشياء جُمعوا في آية واحدة عندما نفاهم الله -عز وجل- إجمالًا؛ فقال: {لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ وَما لَهُم فيهِما مِن شِركٍ وَما لَهُ مِنهُم مِن ظَهيرٍ}[سبأ:٢٢]، فتلك الثلاثة لا يملك البشر ولا المخلوقات كلها بل وحتى الملائكة أي شيء منهم، لا يوجد استثناء في الملك والمشاركة والإعانة، فالله -عز وجل- هو الذي يملك ولا يشاركه أحد، وهو الذي يُقيم؛ فهو {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} الذي يقيم السماوات والأرض والمخلوقات ويُقيت المخلوقات ولا يحتاج إلى شيء سبحانه وتعالى.

أمّا الشفاعة؛ فمنفيّة عن غالب المخلوقات ولكن مُثبتة لبعض الناس؛ لذلك عندما ذكر الله -عز وجل- الشفاعة، لم يقل: "لا يشفعون" أو "ليس هناك شفاعة" بل قال: {وَلا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِندَهُ إِلّا لِمَن أَذِنَ لَهُ}، فحتى من سيشفع يجب أن ينتظر الإذن أولًا من الله ليشفع، فالأصنام لم يؤذن لها أن تشفع؛ قال الله: {إِلّا لِمَن أَذِنَ لَهُ}، أي: أذن الله أن يُشفع له؛ فالمشرك يقف ينتظر الإذن أن يشفع فيه وجل- من يشفع فلم يؤذن له، والأصنام تنتظر فلم يؤذن لها.

فمن هم الذين يُؤذن لهم أن يشفعوا؟

- الملائكة.

- الأنبياء.
- المؤمنون.

هؤلاء يشفعون، لكن مع ذلك تلك الآيات هي مُلك تام لله -سبحانه وتعالى-؛ فحتى من سيشفع يظل واقفًا يصيبه الرعب والفزع حتى يأذن الله له بالشفاعة، وهذا هو معنى ﴿حَتّى إِذا فُزِّعَ عَن قُلوبِهِم﴾، فُزِّع أي: زال الفزع عن قلوبهم، تقول: مرَض فلان، أي: أنه تعب، أمَّا مرَّضه أي: أزال المرض، فمعنى ﴿فزّع﴾ أي: زال الفزع.

لها ثلاثة معانٍ:

١- أن الفزع يكون لمن سيشفع، فالملَك أو النبي قبل طلبه الشفاعة يظل في قمة الفزع والرعب بين يدي الله -عز وجل- حتى يأذن الله ويصدر الأمر من الله: يا فلان أو أيها الملَك أو أيها النبي، أَذِنتُ لك أن تشفع، فيذهب عنه الفزع.

انظر لهذا المشهد المبهر! ﴿حَتّى إِذا فُزِّعَ عَن قُلوبِهِم قالوا ماذا قالَ رَبُّكُم قالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ﴾، الحق أذِن لهم فيسعدوا بذلك.

٢- أو أن الفزع كان للمؤمنين العصاة الذين سيشفّع لهم، يظلون في قمة الرعب هل سيأذن الله -عز وجل- أم لن يأذن؟ وهذا أشبه بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رأى جبريل -عليه السلام- في الإسراء والمعراج، فكان كالحِلسِ البالي! جبريل -عليه السلام- له ستمائة جناح، أصبح كالحلسِ البالي! كقطعة قماش مقطّعة وملقاة! جبريل من سدّ الأُفق أصبح هكذا!! مشهد الذل بين يدي الله -سبحانه وتعالى-، فالآيات تجعلك صدقًا تقول: ﴿الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرضِ وَلَهُ الحَمدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكيمُ الخَبيرُ﴾[سبأ:١].

٣- فُزِّع عن قلوبهم أي: قلوب المشركين، والآية مرتبطة بقول الله -عزّ وجل-: ﴿وَلَقَد صَدَّقَ عَلَيهِم إِبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعوهُ...﴾، أي: ظلوا متّبعين إبليس حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم بالموت، وفُزّع هنا معناها أنّه بدأ يذوق الفزع في لحظة الموت، ظل متعلقًا بالآلهة، متعلقًا بالأسباب إلى موته، فأول ما يأتيه الموت ماذا يقول؟ قالوا ماذا قال ربّنا حتى نطيعه؟ فهو ظل متّبعًا إبليس إلى أن جاءه الموت، ﴿حتى إذا﴾ قالوا

متعلقة بقول الله –عز وجل– {وَلَقَد صَدَّقَ عَلَيهِم إِبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعوهُ...} [سبأ:٢٠]، حتى إذا ماتوا قالوا الآن نطيع الله –عز وجل–.

معنى آخر للآية أن هذا المشهد يحدث عندما يتكلم الله –عز وجل– بالوحي، عندما ينزل الوحي على النبي –صلى الله عليه وسلم–، أو يتكلم الله –عز وجل– بأمر كوني –بأن يقول: كن– في السماء؛ عندما يتكلم الله بأمر في السماء؛ الملائكة تكون خُضْعانًا في السماء، في حديث البخاري: أنّه يحدث صوت في السماء كصوت السلسلة على صفوان أو على الصخر[٦]، الصوت هو كأن تأتي بسلسلة، وتضرب بها على حجر صلب، فيخرج منه صوت مثل الصاعقة! ففي السماء يحدث صوت تخرُّ منه كل الملائكة صعقا! انظر لتلك العظمة!

فعندما يتكلم الله –عز وجل– بالوحي تخرُّ الملائكة خُضْعانًا لقول الله –عز وجل– فيكون أول من يفيق هو سيدنا جبريل، وبعده الملائكة، ثم يسألون {مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ}؟ فيخبرهم جبريل: {قالُوا الحَقَّ}، الله –عز وجل– لا يتكلم إلا بالحق، –كأن تقول –ولله المثل الأعلى– بماذا حكم القاضي؟ فتقول حكم بالحق، أو حكم بالفصل–، فعندما يقول جبريل لهم: الحق؛ تقول الملائكة: الحق، الحق.

ما علاقة هذا المعنى بالسياق؟

هنا أتى الله –عز وجل– لهم بعدة صفات له، أخبرهم أنّه –عز وجل– يملك، ويعطي، ويسلب، فأتى لهم بصفة من صفاته؛ وهي الكلام بالوحي، وهي صفة لا تكون لآلهتهم {قُلِ ادعُوا الَّذينَ زَعَمتُم مِن دونِ اللَّهِ}، فالله –عز وجل– يسألهم هل تتكلم الآلهة بالوحي كما تكلم الله بالوحي؟

العجيب دائمًا أن من الممكن وجود من يدعي النبوة مثل مسيلمة الكذاب، لكنه لم يدّع أن هناك إله آخر أرسله برسالة، لا؛ هو ينتسب لله –سبحانه وتعالى– لكن يكذب ويفتري الكذب على الله –عز وجل–! لذلك يقول الله لهم أن آلهتهم تلك لا تتكلم بوحي، حتى ولو نزلت بالوحي، لكنّ الله –عز وجل– إذا تكلم هو بالوحي تخضع له الملائكة في السماء، فيجب أن تخضعوا في الأرض كما تخضع

[٦] [عن أبي هريرة:] إذا قَضى اللَّهُ الأمْرَ في السَّماءِ، ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بأَجْنِحَتِها خُضْعانًا لِقَوْلِهِ، كَأنَّهُ سِلْسِلَةٌ على صَفْوانٍ قالَ - عَلِيٌّ: وقالَ غَيْرُهُ: صَفْوانٍ يَنْفُذُهُمْ ذلكَ - فإذا: {فُزِّعَ عن قُلُوبِهِمْ قالُوا ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الحَقَّ وهو العَلِيُّ الكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣].
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٤٨١ • [صحيح]

الملائكة في السماء، يجب علينا حين نسمع: قال الله، نخضع، نكون خُضْعانًا في الأرض، نسأل: ماذا قال ربكم ونحن في فزع، خشية أن ينزل علينا العذاب!

لما قال ابن عباس لبعض التابعين: افعلوا كذا، لقول الله –عز وجل–، وقول النبي –صلى الله عليه وسلم–، فاعترض أحدهم وقال له: قال أبو بكر كذا، وقال عمر كذا! فقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول قال الله، وقال رسول الله، وتقولون قال أبو بكر وعمر! رغم أنهم يستشهدون بقول أبي بكر لكنّه يخبرهم أنّه عندما يقول قال الله والرسول ينتهي الحديث! لو أعرضتم عن قول الله وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوشك أن تنزل عليكم صاعقة من السماء، هذا كان فهم الصحابة لتعظيم الوحي وتعظيم كلام الله –عز وجل–، هذا التعظيم جعل أبا بكرٍ الصديق، وعمر بن الخطاب، وأم أيمن يبكون لانقطاع الوحي، لأنهم كان يعظمون الوحي.

فكما أن الملائكة تعظّم الوحي في السماء لا بد أن نعظمه في الأرض.

نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.